الوجود الغض وعود على بدء

تشتاق النفس وتحن إلى عهد الطفولة ، ففي ذلك العهد تتجرع الإنسان أول كؤوس السعادة الصافية من منابعها الإصيلة ، وشهد فجر وجوده ومازال غضا طريا ، ينضح غضارة ولينا ، والعالم على ضيق مساحته في ذلك العهد ، كأنه بستان تفترش أرضه العشب الأخضر وأسراب الزهور ، وترتفع في سمائه أغصان الأشجار الحافلة بالطيور الصداحة والتي أسكرها جمال الوجود ، وتظل تترنح من السعادة والنشوة ، وتشدوًا إعجابًا بهذا الجمال .

في ذلك العهد السعادة بلا ثمن ، والوجود بلا ألم ، الإنسان فيه لا يحوي غير السعادة ، يرتع يلعب بلا قيود ولا حدود ، كل ما يتمناه يحققه ، وكل ما يريد يفعله بدون خوف من رقيب ، وبدون حذر من محاسب ، مثله في ذلك مثل العصفور الذي يتنقل من غصن إلى غصن ، ومن سطح إلى إفريز يلتقط ما يلتقط ، ويحسو ما يحسو .

ويقضي ذلك العهد ، ويكبر الإنسان ، وينفد إكسير السعادة من الكؤوس ، ويغدو الوجود صحراء قاحلة ، تحرقها اشعة الشمس القاتلة ، وتستأصل الأشجار من الجذور ، بعد ان تهجرها الأطيار ، وتصبح السعادة لحظات نادرة الوجود ، أمام سنين الألم والمرارة ، ولا يبقى من عهد الطفولة سوى تلك الذكريات الجميلة ويكون لها تأثير نسمة ندية في يوم صيف قائظ الحرارة ، يحلو للإنسان أن يسترجعها مرارًا .

ويتوقف الشوق إلى ذلك العهد بما يلاقيه الإنسان في وجوده الحاضر. فإذا شعر بثقل الوجود عليه ، وضيق عالمه من خلال القيود والقوانين والعادات والتقاليد والذوق العام ...إلخ ، اشتد شوقه للعودة للوجود الغض أيام كان طفلا بهذا الشعور الناصع بالوجود وتلك الشفافية المطلقة بالإحساس به . ويتساءل الإنسان ، هل يا ترى تلك الذكري الطيبة ستدوم . أم أن تلك الذكرى سيعكرها حاضر الإنسان وما يموج به من منغصات . وهل هناك ما يسمى بالوجود الظليل داخل الإنسان ، والذي نسميه بمنطقة (الذكرى) والتي يلجأ الإنسان إليها ليستريح من وعثاء وهجير رحلة الوجود الشاقة ؟

وكان أمام المازني طريقان ، حينما يعود بالشخصية إلى طور الطفولة :

الأول : أن ترجع الشخصية إلى طور الطفولة جسدًا وعقلاً .

الثاني : أن ترجع الشخصية بالجسد فقط ، بينما العقل عقل رجل بالغ ؛ ليسجل العقل تحركات الطفل وإيقاعات الوجود عليه .

واختار المازني الطريق الثاني . أن تعود الشخصية إلى الطفولة بجسدها ويبقى العقل على حاله ، ولكن أين تكون السعادة في الحالتين ، حينما يكون الرجوع بالجسد والعقل معا ، أم بالجسد فقط ؟

يقول في صفحة (٥٥) : (وقد رددت طفلاً ؟ غن يكن هذا هكذا فلماذا بقى عقلي عقل رجل ؟ أم تراه سيصغر شيئا فشيئا على الأيام – أو على الساعات – حتى ينقلب أيضا عقل غلام حدث ؟ فأني أرى نفسي تنازعني أن أصنع ما يصنع الصبيان وأن أركب الحياة والناس بما يركبهما به حدث غرير ، ولو تم هذا التحول لكنت به أسعد وأشقى – أسعد لأن حداثتي تستوفى حينئذ حقها بانتفاء هذا

التلفيق والترقيع ، وأشقى لأني أبت صلتي بما عشته وألفته ، وأنساه ، وتتغير شخصيتي التي أنا بها ، ولست أرضى لنفسي هذا ، ولست مستعدا أن أرضى سلفا عن شخصية جديدة أجهلها ، واعتاضها من شخصيتي القديمة المألوفة ، ثم لماذا تكتب لي وحدي هذه المحنة دون خلق الله جميعا ، ويقضي على أن أحيا حياتين مختلفين ، وأمر بعهد الحداثة وما يليها مرتين ؟

وإذا ظل الحال يجري على هذا المنوال فأصغر بعد أن أكبر ، فمتى يمكن أن أستريح وأعفى من هذا العناء المتكرر) .

فهو سيسعد ؛ لأن العقل سيكون منسجما مع الجسد ، ولن يكون هنالك ترقيع أو تلفيق ، فليس هناك تناقض ولا تصارع بين الجسد والعقل ، وهذا من شأنه أن يحقق السعادة للإنسان ، وسيشقى أيضا لأنها ستفصم عرى الألفة التي بينه وبين وجوده القديم المألوف له ، وهو يرفض أن يستبدل شيئا يعرفه بشيء لا يعرفه ثم إذا حدث هذا ، فهو يتناقض وسنة الوجود ، فمن الطبيعي أن يولد الإنسان صغيرا ، ثم يكبر ويشب وهذا شيء طبيعي ، وهو إذا أصبح فوجد الشيب غزا شعره فجأة وأخذت التجاعيد والأخاديد مكانها في وجهه ، وأحدودب الظهر ، لما أنكر هذا لأن هذا هو الطريق الطبيعي مع امتداد العمر ، أما أن يرجع إلى الطفولة بعد الكبر فهذا لا يتوافق وسنة الوجود مطلقا ، يقول في صفحة (٨٩) :

(ولكن البلاء والداء العياء ، اني لا أراني مطيقا لاعتياض هذه الشخصية الفجة التي لم تنضج ، من شخصيتي القديمة ، كلا هذا عسير ، وهو المعضلة الكبرى في الأمر كله ، وما أرى الذي أتاني هذا الجسد الصغير إلا قد اخطأ وكلفني شططا ولو كان أهرمني وأعلى سني واسكنني جسدًا مقوس القناة وجعل لي وجها مغضنا

كالمدينة بادية من طيارة ، وأشاع الشيب في رأسي ، لكان أهون ، وأخف محملا ولكن أيسر على أن أفضل هذه الوثبة إلى الشيخوخة وأسكن إليها لأنها هي التي تقترن في الذهن بالحياة مع امتداد العمر ،والمرء يتوقعها ويعرف أنه يدلف إليها ولكن استمرار الحياة لا يقترن في الذهن أبدا بهذه الرجعة ، أو بهذا الهبوط إلى سفح الجبل بعد أن قارب المرء ذروته وليس في الحياة لا وقوف ولا رجوع إلى الوراء فكيف يمكن أو أوطن نفسي على هذا المستحيل ؟) .

فالإنسان يقنع بالذكرى ، يحلو له أن يرجع بذهنه إلى عهد الطفولة ، عهد الصبا ، وما أخذ من لذائذ ومتع ،في تلك المرحلة يود الرجوع ،ولكن الذاكرة كالغربال لا تحتفظ إلاَّ بالصور الباهتة للمتع ، ولحظات قصيرة من السعادة على مر الأيام وهما ما يظفر به الإنسان أثناء التذكر.

أما إذا رُد ثانيا إلى ذلك العهد ، فلابد وأن يعيشه معايشة صادقة ، ويتذوقه بحلوه ومره ، ولكل مرحلة متاعبها ومنغصاتها وآلامها ، والمازني وضع شخصية (سنا) في حيرة وفي مأزق ، أيسير بما يمليه عليه عقله فينتهج نهج الرجال ، ولكن في هذا يخالف ما يشير به جسده ، ويعرض رأي المحيطين به الذين يعتبرونه طفلا ويعاملونه من خلال هذا الاعتبار ، أم ينتهج نهج الأطفال متمشيا مع جسده ومتوافقا مع أراء من حوله ، معارضا في ذلك عقله ؟

وهو إذا أرضى عقله لن يرضي جسده ، وإذا أرضى جسده سيخالف عقله أين المخرج من تلك الأزمة (٥٦) : (وكنت وأنا أدير هذا في نفسي أتمشى في الحديقة فخطر لي أن مد البصر إلى المستقبل متعبة ، وأن الساعة التي أنا فيها أولى بالعناية وأن أول ما ينبغي هو أن أعرف أين أنا ؟ أي بلد هذا وأي حي ؟ لأعرف أقرب

أنا أم بعيد من أهلي وبيتي . ويحسن أن أعرف ماضي (الجديد) فقد أقحم على حاضر أعيشه وأحياه بماضي يعد (مستعارا) وهذا ترقيع لا تصلح به الحياة التي أُعطيتها . فإما أن أُعطى ماضيها معها ، أو أعاد إلى الحاضر الذي زحزحت عنه وأجليت لا أدري كيف ؟) .

إن كل ما يجذب اهتمام الشخصية وهي في هذا المازق ، هو الوجود الحاضر فهو لا يملك الماضي لأنه يجهله ، ولا يطيب له أن يمد البصر إلى المستقبل فهو في قبضة الغيب ، إذن فوجوده لا يتحقق تحققا واقعيًا إلاَّ في الحاضر ، ففي حاضره يملك كل وجوده ، ويملك كيفية توجيهه ، ولكي يتمكن من هذا ، هنالك أسئلة لابد من الإجابة عليها أولا ، أين هو؟ أي بلد الذي يحيا فيه ؟ وبالإجابة عن تلك الأسئلة يستطيع أن يحدد وجوده .